الفصل الثالث

أغلفة تغطى الحقيقة العظمى

يطيب لى أحيانًا أن أقيس نفسى بسكان الأرض من البشر كما تقيس القطرة نفسها أحيانًا بأمواج اليمّ ! أقول : ما أنا ؟

واحد من خمسة مليارات يطعمها قيّم السموات والأرض ! تنتشر بين المدائن والقرى ! ما أقل شأنى !.

لكن القضية ليست قضية طعام ميسور أو مُجهد ، يحيا به هذا الجسد ، إن لكل واحد منا عينين وأذنين يطلّ بهما على الوجود من حوله ، والإبصار وظيفة معقدة تنقل صور الأشياء إلى المخ ليميز بعضها عن بعض ثم يتصرف .

وكذلك الآذان فى أصداغ الناس كلهم ، وقد تكون وظائفها أعقد وأصعب ..

علىّ ـ كى أستبين الحق أن أجيب عن خمسة أسئلة فى هذه الآية : « قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ .. ؟ »[1] .

إن عشرين مليارًا من الآذان والعيون تقوم بوظائفها فى هذه اللحظة تحت إشراف بالغ الدقة .

وهناك أضعاف هذا العدد من الخلايا التى تولد والخلايا التى تفنى ، فى كل كيان حىّ تظل فيه الحرارة ، وتتجدد فيه الأنسجة إلى أن يأذن الله بقبضه إليه ،

---

(١) سورة يونس : ٣١ .

فتخلو منه الدنيا بعد أن جاءها كما كانت خالية منه قبل أن يجيئها !.

من المشرف على هذه المواكب المتصلة ؟ من يدبر أمرها كله ؟ إننى فى دنيا الناس الآن ـ عندما أقيس نفسى بسكان الأرض ـ أهون من ذبابة فكيف إذا قست نفسى بجموع المستقدمين والمستأخرين من أزل الدنيا إلى أبدها ؟ كم أساوى والحالة هذه ؟

لقد تضاءلت كثيرًا وهذا الخاطر يمرّ بى ، وزاح عنى غرورى ، وعرفت أن المحصورين فى أنفسهم يعيشون فى وهم كبير أو فى ظلمة دامسة !.

ثم طفر بى الفكر طفرة أخرى : ما يكون وزن الناس كلهم بعد ما أسمع هذا النبأ عن أبعاد الكون الذى نرمق ملكوته بقصور شديد ؟ يقول الله تعالى : «لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »[1] .

إن الأرض إذا قيست بأمها الشمس هباءة طائرة ، والشمس إذا قيست بالمجرات الأخرى هباءة شاحبة ، والشموس والمجرات إذا قيست بملكوت الله حلقة فى فلاة ..

وليس يبقى فى العالم الرحب شىء له قيمة تذكر إلا عقل ساجد لله جاثٍ أمام عظمته يقول : «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»[2].

إن الألسنة اللاهثة تنقطع وهى فى سباق مع ذرات الوجود قبل أن تحصى ما ينبغى لله من مجد ، وما يستحقه من حمد !.

ولأقرر أن محمدًا عليه الصلاة والسلام هو الذى ورث علوم الأنبياء ، وقدّم لنا فى كتابه ؛ الحقَّ المصفَّى .

إنه الإنسان الأول الذى أحسن تنزيه الله ، وتوحيده ، ومدحه والثناء عليه بما هو أهله .

والحضارة التى أقامها على ظهر الأرض ؛ أساسها الربانية الخالصة ، وشعارها الفذ : الله أكبر .

---

(١) سورة غافر : ٥٧ .

(٢) رواه البخاري في التوحيد.

وجهادها الزاكى الباقى هو لحراسة الحقيقة الواحدة ، وإخماد المناوشات التى تعاديها ...

وقد لاحظت أنا وزملائى ندرس العلوم الحديثة ؛ كأن هناك مؤامرة طويلة الذيول لتجهيل الناس بالله ، وصرفهم عنه ، وتعليقهم بأوهام ما أنزل الله بها من سلطان .

اسمعْ هذه الكلمة إن الطبيعة زودت الأرحام بوسائد ينقلب فوقها الجنين فلا تضطرب له أجهزة ، ولا تشوه له ملامح مهما كانت الاهتزازات التى تتعرض لها الأم !!.

ما الطبيعة التى قامت بهذه المهمة الصعبة ؟ ذكر هى أم أنثى ؟ جنٌّ هى أم ملك ؟

كيف قامت بمهمتها هذه فى أرجاء القارات الخمس ؟ ظاهر أن الكاتبين يتعمدون إسدال حجب خادعة على عمل القدرة العليا ، ظاهر أن المراد إهالة التراب على اسم الله ! أهذه معرفة إنسانية أم جهالة إنسانية ؟

إن البيئة التى نشأ فيها العلم المادى كانت أبعد ما تكون عن احترام الدين لأن الدين الذى عرفته كان أبعد ما يكون عن احترام العقل ، بيد أن الحقيقة لا يجوز أن تضيع فى هذه المتاهات الغريبة !.

واسمعْ هذا الكلام فى تفسير بدء الخلق : منذ ٥٠ مليون سنة وقع انفجار عظيم فى الكون ، انطلقت منه سحب هائلة من الغازات والذرات أخذت تدور هنا وهناك !! ثم تجمعت على مرّ السنين ، فإذا هى تلك النجوم والشموس والعوالم العليا والدنيا التى تشرق وتغرب فى أرجاء السماوات !!.

انفجار نشأت عن أنقاضه المتناثرة هذه الكواكب الدوّارة بحساب دقيق ، « لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ »[1] .

ونشأت عن مصادفته العمياء أو العوراء أرضنا التى قال موسى فى وصفها

---

(١) سورة يس : ٤٠ .

لفرعون ، أو فى عمل الله بها كما عبر القرآن الكريم : « ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ »[1] .

أىّ انفجار هنا ؟ من صاحبه ؟ كيف تمخض تلقائيًا عن هذه الأفلاك التى لا يعْوجَّ بها مدار ، والتي لا يتخلف لها ميعاد في شروق أو غروب؟

هذا هذر باسم العلم ! هذا تجهيل متعمد للخالق الحق بديع السَّمٰوات والأرض ..

والذى يراه أولو الألباب أن العلم الحديث ؛ يجب أن يبرأ من هذا التجهيل الكنود ، وأن يترك «س» هذه التى ينطلق منها فى علوم الكيمياء والفيزياء والأحياء ، وأن يتحدث بأدب وخشوع عن الخالق الكبير..

وهذا التصحيح هو عمل المسلمين الأول ، وهو ألف باء الرسالة الإسلامية . والواقع أن علم التوحيد أو علم الكلام هو الذى ينهض بهذا العبء عندما ينسجم مع قواعده القرآنية ، ويتخلص من أدران الفكر الإغريقى القديم ، ويتخلص فى الوقت نفسه من العوام الذين يقفون عند الظواهر القرآنية ، ويتحدثون عن الله حديثًا يشبه حديث الخرافيين من أهل الكتاب الأولين ويكادون يجسدونه لفرط سذاجتهم ..

* * *

الديـن والمعـرفـة

المظنون أن البلاد التى سعدت بالوحى أدنى إلى الرشد ، وأحق بالاستقرار من البلاد التى حرمت منه ، فقد تمهّد لها الطريق ، وانزاحت العقبات ، ولعلها تجد فى مسيرتها ما يعرّفها بالوجهة ويؤمِّنها من الأخطار ..

لكن ملاحظة الماضى والحاضر تخلف هذا الظن ، وتلقى فى أنفسنا أن جماهير

---

(١) سورة طه : ٥٣ ـ ٥٤ .

غفيرة تحرم من بركات الدين لسببين : إما زيغ فى القلب أو أفن فى الرأى ! وقد يلتقى السببان فى بعض الأفراد أو فى بعض الطوائف ..!.

والذى يتدبر القرآن الكريم يشعر بأنه أكثر الحديث عن أهل الكتاب السابقين كى يجنِّب أصحاب الرسالة الخاتمة قسوة القلب ، وضعف الفكر ، ويربطهم بالفكرة السليمة والعقل الواعى !.

وليتنا أبصرنا على أشعة الوحى الخاتم هذه الحقائق ! فإن الإيمان يضيع أثره مع كل خلل يصيب العقل ، ومع كل هوى يخالط القلب ، أو بتعبير أصرح لن يكون للدين موضع يحتله ويعمل منه إذا اختفى الإنسان السوىّ ، وتعطلت مشاعره ؛ وتعطل أسمى ما فيه وهو تفكيره وضميره ! وقد أعجبنى كتاب الأستاذ عبد المنعم خلاف : « أومن بالإنسان » لهذا الملحظ !!.

عندما يكون الدين مراسم لفكر سطحى فإنه يتحول إلى أشكال وترانيم ، وعندما يكون ذكاء مع شح مطاع وهوى متبع فإنه يتحول إلى مصيدة للمغانم والمآرب ..

وأخطأ سقراط عندما قال : الفضيلة المعرفة ! ما قيمة المعرفة عند الذين تقودهم شهواتهم ؟ « أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » (١).

لابد ـ مع المعرفة الواسعة ـ من ضميمة أخرى ، هى النية الشريفة ، وإخلاص القلب لله ..! وقد أفاض علماؤنا الأولون فى أن النجاة تعتمد على الفقه ـ وهو المعرفة الصحيحة للحكم ـ وعلى التجرّد ـ وهو البراءة من المآرب الشخصية والتمحّض لله سبحانه ـ ويظهر أن الجمع بين الأمرين يحتاج إلى جهود مضنية ..

هل كان الخوارج مخلصين ؟ يرى الكثيرون أنهم أُتُوا من بلادة الفقه وقصر النظر مع حسن نيتهم !!.

ورأيى أن رفضهم السماع من أولى الألباب وأهل الذكر هو لون من العناد

---

(١) سورة الجاثية: ٢٣.

يقدح فى إخلاصهم للحق ! ويخرجهم من دائرة الاجتهاد المحترم !.

الفضيلة هى المعرفة حقًا عندما تكون المعرفة باعثة على إرضاء الله وفعل الخير ، ونصرة الحق ، ومحق الباطل ، وتحسين الحسن ، وتقبيح القبيح ، وما أحوج العالم الإسلامى إلى عارفين من هذا النوع الشريف ..

إن البيئات المتدينة فى أرجاء شتى من العالم الإسلامى تتّسم بالقصور والجمود ، وتشدّها إلى التراب طبائع معتلّة ، والجو الذى تحيا فيه يخالف مخالفة تامة جو القرآن الكريم المليء بالصحو والضوء والتألق والانطلاق ..

لقد شرح لنا الوحى الخاتم علاقتنا بربنا ، وعلاقتنا بالناس ، فعرفنا أن الله واحد ، وأن ما عداه خلْقٌ يعنو له ، ويهلك إن فقد إيجاده وإمداده ، وأننا عائدون إليه البتة ؛ بعد انقضاء آجالنا هنا ، وأننا محاسبون على الطريقة التى قضينا بها أيامنا على ظهر الأرض ..

شرح القرآن ذلك بوضوح لم يعهد فى فلسفة سابقة ، ولا فى دين مضى ...!.

فالإله كما صوره أرسطو يحيا فى غيبوبة خاصة لا يدرى ما يفعله غيره ، ولا يعنيه ، وهو بتعبير «ويل ديورانت» يملك ولا يحكم مثل ملكة إنجلترا .. ! ولعل العالم صدر عنه بطريق التفاعلات الكيماوية ! إنها ألوهية سخيفة !.

أما الإله الثالوث فشأنه لا يقل عجبًا ، إن إدخال جبل فى قارورة أيسر من إدخال فكرة التثليث والتوحيد فى دماغ بشر ، وكذلك فكرة الخطيئة والفداء ... من أجل ذلك انفصل العلم عن الدين ، واتخذ لكل منهما وجهة خاصة به ، على نحو ما قيل :

سارت مشرِّقةً وسرت مغرِّبًا شتان بين مُشرِّق ومُغرِّب

أما الوحى الخاتم ـ وما نحسب فى الدنيا الآن وَحْيًا غيره ـ فهو يقود البشر من بصائرهم إلى كون يدل على الله ، أو إلى إله تنجلى عظمته فى ملكوته ، وتنضح الآفاق بوحدانيته وامتداد سلطانه ! ! «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ

رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »[1] .

ومن عجائب الدنيا أن أمة لديها هذا الوحى لا تحسن صحبته ، ولا تستضىء بسناه ، ولا تتعرف منه على حقوق الله وحقوق الناس ! ! بل ينظر الناظرون إليها فيجدونها متخلفة عن الركب الإنسانى السائر ، يحود عليها هذا بآلة ، وذاك برغيف ، أو يمتنُّ هذا عليها بدواء تعالج به عللها ، أو سلاح تردّ به العادين عليها .. أما إنتاجها لنفسها ودينها فصفر ! .

إن الهزائم النفسية والعلمية أنكى فى نظرى من الهزائم السياسية والعسكرية ، ويغلب أن تكون هذه نتيجة لتلك ..

وقد رمقت الصنم الذى هوى فى أوروبا الشرقية ، وكيف تدافعت الشعوب إلى الخروج من سجن الشيوعية ، وكيف تعالت صيحاتها وهى تطارد حكام الأمس الدابر ، وتستنزل عليهم اللعنات ! ! .

وكنت أحسب الشيوعيين العرب سوف يتوارون خجلاً بعدما انكشفت عوراتهم هناك ! لكن الذى حدث أنهم تماسكوا ونظموا فى الجزائر مظاهرة نسوية لإلغاء قوانين الأسرة الإسلامية ! ..

قال لى صديق : لماذا أراك دهشًا ؟ إن هذا ما صنعه الإسلاميون بأنفسهم ! أتريد صورة للإسلام الذى يقدمونه ؟ تخيل معرض سيارات فاخرة أحسن الصنّاع جوهرها ومظهرها ، وتطلعتْ العيون معجبة إلى روائها ، فإذا عارض كثير الصياح يقدم بدلها ، وفى زحامها دابة نشيطة أو كسولاً ، عارية أو مسرجة ، ماذا يفعل النظارة بها ؟ إنهم يسخرون منه ومنها ، ويتركونه ودابته ! هكذا قدّم الإسلاميون الإسلام ! ! .

إن هؤلاء الدعاة يصلحون للعمل فى أسواق الماشية ، ولا يجوز أبدًا أن يتحدثوا عن إسلام لم يفهموه ، ولم يرتفعوا إلى مستواه ...

---

(١) سورة غافر : ٦٤ ـ ٦٥ .

أثر الدعاة على الدعوة

ما الذى دعا الشيوعيات إلى التصايح ضد قانون الأسرة فى الجزائر والمطالبة بإلغائه ؟

الذى دعا إلى ذلك خطباء ودعاة إسلاميون ، تحدثوا عن موقف الإسلام من المرأة حديثًا استفزّ أولى الألباب ، وبعث فى النفوس الوجل من مستقبل يستولى فيه أولئك الإسلاميون على الحكم !.

يقول أحدهم : الإسلام يرى أن المرأة إنما خلقت لتلد الرجال !! ويقول ثانٍ : مقارّ النساء البيوت ، ما يخرجن منها إلا إلى الزوج أو إلى القبر ! ويقول ثالث : يجب أن تظل الفتاة أميّةً لا تكتب ولا تحسُب ! ويرفق رابع بها فيقول : حسبها إتمام المرحلة الابتدائية فى التعليم ، وما وراء ذلك لا داعى إليه .. !.

وبلغنى أن طالبة ساذجة فى أحد المعاهد قالت لأمها : أما يوجد دين آخر أرفقُ بنا من هذا الإسلام ؟؟

لقد شعرت أننى أطعن فى فؤادى عندما سمعت مقال هذه الطالبة !!.

إن الدين الذى كرم الإنسان ذكرًا كان أو أنثى أمسى على ألسنة بعض الفتّانين الجهال هوانًا بنصف الإنسانية وتحقيرًا لها .. !!.

لقد مكثنا بضع سنين فى الجزائر نؤكد صدق العلامة ابن باديس عندما أيقظ الإسلام فى صدور الرجال والنساء جميعًا ، مؤكدًا أن الأمة لا تستطيع التحليق إلاّ بجناحيها، من الرجال والنساء، وواقفًا عند قول الرسول الكريم «إنما النساء شقائق الرجال»[1] وقول الله سبحانه: « لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ »[2].

إن غلمانًا سفهاء يحملون علمًا مغشوشًا أو جهلاً مركبًا هجموا على الصحوة الإسلامية ، وكادوا يقفون مسيرتها بما ينشرون من ضلالات ، ويشيعون عن الإسلام من إفك ..

---

(١) رواه أبو داود والترمذي في الطهارة ورواه أحمد في مسنده (٦/٢٥٦ و ٣٧٧).

(٢) سورة آل عمران: ١٩٥.

استغل الشيوعيون هوسهم الدينى فقادوا مظاهرة إلى المجلس التشريعى منادين باحترام حقوق الإنسان وحفظ كرامة المرأة ..

ونحن المسلمين أعرف الناس بذلك كله ، ولكن سفهاءنا غلبونا على الرأى ، وليس أغيظ لنفسى من الدعاة الجهلة عندما ينفِّرون الناس من الإسلام بسوء تصوُّرهم وتصويرهم له ...

ولعل هذا ما دفع توفيق الحكيم إلى الخطأ عندما سئل : هل يمكن لدولة عصرية الاعتماد على الإسلام نظامًا للحكم ؟ لقد أجاب إجابة عشوائية تحتاج إلى تصحيح ! قال : ممكن .. ولكن لابد من تفسيرات جديدة للإسلام تتفق والمفاهيم العصرية ، فمن المؤسف تبنِّى البعض تفسيرات القرون الوسطى للنصوص الدينية » .

فى هذا الكلام تخليط ظاهر ، فالمطلوب هو تفسير الإسلام التفسير الصحيح ..

وعندما تعرف حقائق الإسلام فإنها ستكون الدواء الناجع والتقويم الصحيح للأعصار كلها قديمها وحديثها ...

والدولة الإسلامية التى ظهرت فى القرون الوسطى ؛ قدمت للناس مفاهيم دقيقة صلحت بها أوضاعهم ، ولا تزال صلاحيتها للتطبيق قائمة ، المهم أن نذود عنها ذوى العقول المختلّة ..

أيام دولة النبوة كان رباط المرأة بالعلم والعبادة وثيقًا ، وكذلك أيام دولة الخلافة الراشدة .. فإذا نبت فى عصرنا من ينكر ذلك لم يحتج الإسلام إلى تفسير عصرى ، بل إلى تفسير سلفى ، على ألا يقوم بهذا التفسير مغفل جرىء ..

تدبر ـ أيها القارئ الكريم ـ ما نقوله لك ، وتدبر معه قول الدكتور « لويس عوض » عندما سئل : هل يحافظ الإسلام ـ حتى يومنا هذا ـ على شمول دعوته ؟

قال : كلا .. وإذا كان الإسلام قد استطاع التغلب على « بيزنطة » قديمًا ،

فلأنه كان دينًا «علمانيًا» (!) أكثر من المسيحية فى القرن السابع ، وكان معنيا بالأمور الحيوية عنايته بالنواحى الروحية ، على حين كان البيزنطيون لا يهتمون إلا بشئون الآخرة ،

ثم قال : ويبدو أن ما تحلم به الجماعات الإسلامية المعاصرة هو إسلام بيزنطى[1] !!.

نقول : «وهذا الكلام على ما فيه من تشويش ؛ صائب فى جوانب عديدة ... إن أشرف ما تزيَّن به العلمانية دعواها هو تطلُّعها إلى إنسانية سليمة تنمو مواهبها فى جو ضاحٍ من الحريات المصونة ، تحرسها عدالة اجتماعية وسياسية ممتدّة ، وينعم فيها الرجال والنساء ، والصغار والكبار بحقوق لا يعكرها افتيات طبقى أو عرقى ، وينفتح الناس فيها على الحياة ، فيستغلون قوى الكون باقتدار مادى وعلمى لا حدود له ..!.

إن حضارتنا الأولى كفلت هذا كله وضمت إليه أمرًا آخر لا تعرفه الحضارة المعاصرة ، هو الإيمان بالله ، والتزام هداه ، والإعداد للقائه ، والشعور بأن هذه الحياة الدنيا جسر إلى ما بعدها من خلود !.

ذاك تاريخ سلفنا العظيم ، بيد أن الخلوف التى ورثت هذه الحضارة أشبهت أجيال اليهود والنصارى بعد ما قست قلوبهم وخمد فكرهم ..

ولا يكون الإنسان سلفيًا بعمامة على رأس متحجر ، وفكر طفولى ، ولا تكون المرأة سلفية بنقاب يشوِّه ملامح الإنسانية ويطمسها ، قبل أن يستر ملامح الوجه وسيمًا كان أو دميمًا ..

والمفاهيم العصرية التى يتمناها توفيق الحكيم هى هى حقائق الإسلام الذى جاء به الوحى قبل أن يتجرأ عليه أدعياء السلفية ، ويقدموه للناس شرابًا مُرًّا ، يورث المرض والتخلُّف والهزائم ..

والواقع أن أعداء الإسلام ـ كما رأيت ـ يفتحون الأبواب للسلفية الحديثة ،

---

(١) لويس عوض ناقم على الإسلام ودعوته وقد رحب بالخيانة الوطنية التى ارتكبها يعقوب حنا عند غزو فرنسا لمصر ، وهو بداهة يستغل أخطاءنا .

حتى إذا أدرك الناس فحواها ثارت على الإسلام ثائرتهم ، وقرروا الابتعاد عنه ، وفضلوا عليه كل نِحلة أخرى ..

لقد علمت بعد دراسة طويلة أن الملك عبد العزيز كان على حق عندما أدّب الغلاة من الإخوان[1] الذين تمردوا عليه ، ورأوا إعلان الحرب على سياسته الخارجية دون وعى ولا قوة !.

كان الملك ـ وهو قائد سياسى وعسكرى ـ أبصر بحقائق الدين من محترفى الفقه ، وكان يمكن القضاء على الدولة كلها لو نجح هؤلاء الغلاة فى فرض أنفسهم ..

الواقفون أمام الفكر الصحيح

إننا فى هذه الأيام كى ننتصر على الإلحاد ، وعلى الأعداء المتربصين بالكتاب والسنة ، يجب أن نقلِّم أظافر هؤلاء الواقفين أمام الفقه الصحيح ، والعمل الجاد المثمر ... إنهم عند البصر الدقيق حرب على الإسلام ..

عندما أسقط المرتدون الخلافة الإسلامية فى تركيا ؛ أقاموا نظامًا «علمانيا» ظاهره الانفلات من الأديان كلها ، وباطنه مخاصمة الإسلام وحده ، ومتابعة أوروبا فى مظاهر حضارتها المنتصرة ..

وكان النظام الجديد عسكريًّا صارمًا ، بدأ عهده بقتل عدد كبير من رجال الدين الذين قاوموه ، والحق أن الشعب كله كان كارهًا له ، مؤثرًا الإسلام فى شئون حياته كلها ، بيد أنه فشل فى مقاومة الارتداد المسلح ، فاستكان على مضض ، وإلى حين ، منتهزًا كل فرصة لإظهار ولائه الإسلامى وحنينه إلى أن يعود الإسلام المستبعد ..

وبديه أن تكون شئون الأسرة والعلاقات بين الجنسين هى فى مقدمة ميادين الصراع بين العلمانية والإسلام .. كان الحكام حراصًا على نقل الاختلاط الأوروبى

---

(١) هؤلاء غير الإخوان المسلمين الذين بدأت دعوتهم في مصر، ثم انتشرت في العالم الإسلامي.

الماجن إلى الشرق الإسلامىّ كله ، وإذا كانوا قد تركوا القرآن خلف ظهورهم ، فما الذي كان يرجى منهم؟ « وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ »[1].

وقاومت طالبات الجامعة والمعاهد هذا الزحف المنحل ، وأصررن على ارتداء الحجاب الإسلامى ! إنه سمة الفضيلة والتحفظ ! تبقى المرأة ظاهرة الملامح ، ويبقى جسمها مصونًا عن الأعين المتلصصة ..!.

بيد أن هذا الاحتشام أحفظ الملاحدة ، فاستصدر قائد الجيش (!) قرارًا من المحكمة العليا بأن هذا الاتجاه الإسلامى يخالف الثورة الكمالية العلمانية ! ومن ثم يجب منعه !.

وقد لاحظنا أن المحكمة الدستورية العليا فى فرنسا أقرت الحجاب الإسلامىّ ولم تر فيه تناقضًا مع النظام العام السائد ، وهو حكم معقول ، لكن التابع الأحمق قد يكون ملكيًّا أكثر من الملك ! أفكان النظام التركى قادرًا على منع الراهبات المسيحيات من ارتداء ملابسهن ؛ وهى أقرب ما تكون إلى الحجاب الإسلامى ؟ إنه استأسد على الغافلات المحصنات ؛ من طالبات الجامعات وحدهن ..!.

وليس فيما قلته جديد يستحق التكرار ، الذى يستحق التكرار والإنكار أن بعض المنقّبات كن يشتمن الطالبات المحجبات ويقدحن فى أعراضهن ويزدن الطين بلة !!.

وعندما كنت أدرس فى جامعة الجزائر الإسلامية ، كان الطلاب عن يمينى فى المدرج والطالبات عن يسارى ، ولاحظت أن الوجوم يخيم على البنات بعد أيام قلائل كن يسألننى فيها على استحياء !!.

وعلمت أن الطلاب الذكور هددوهن إذا سألن ! فإن صوت المرأة عورة !! ورددت على ذلك بمنع الأسئلة الشفوية من الجنسين ، وقبول الأسئلة المكتوبة وحدها !! وأكدت ما قررته مرارًا أنه لا عورة فى صوت المرأة ولا فى وجهها ..!.

---

(١) سورة النور: ٢١.

ثم شعرت بأن مستقبل الإسلام فى مهب الرياح إذا بقى الفكر العفن يحتلّ آفاق الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية على النحو الذى ينشره بعض العلماء ! !.

إن الإسلام سيحكم عليه بالطرد من كل ميدان ، إذا بقى مصوِّروه يبرزونه فى تلك المعالم القبيحة التى لا يعرف غيرها الدهماء من المنتسبين إلى الإسلام ..

أقول مع أولى الألباب وأهل الذكر : الحرية الدينية حق ! فيجىء مغموص جهول يقول: «لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ»[1] آية منسوخة، بطل حكمها!.

أقول لدعاة السلام فى العالم : نحن قبلكم ندعو إلى السلام ، ونكره إراقة الدماء ، وما نخوض حربًا إلا دفاعًا عن عقيدتنا وتأمينًا لدعوتنا ، فإذا غلام طائش يقول : كلا إن نبينا قال : «بعثت بالسيف بين يدى الساعة ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي..»[2]!!..

هذا الغلام ما تدبر القرآن ، ولا عرف مواضع السيف ، إنه يعرف منطق العصابات !.

نقول : الأمر شورى ، ولا يملك أحد الإفتيات على الجماهير ، فيقول : لا شورى ، الفرعون الحاكم لا تلزمه الشورى ، فهى له معلمة لا ملزمة .. ! !.

نقول : يجب احترام حقوق الإنسان فيقول : أى إنسان ؟ هذا التعبير بدعة ! !.

نقول : إذا تكونت هيئة الأمم على ما يشبه حلف الفضول انتسبنا إليها ؛ لنضبط سيرها ، ونحدد وجهتها ، ونعلى سيرتها ، يقول : هذه دار حرب وحسْب .. ! إلخ .

إن هذه العقليات أنزل رتبة من أن تؤتمن على مستقبل شركة مساهمة ، فكيف يتاح لها التحدث عن دين كبير ورسالة أورثت الإنسانية أرقى حضاراتها .. ؟

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده وتكلم فيه الحافظ بن أبي حاتم في العلل (٣١٩/١).

لكننا نحن المسلمين نعانى من فوضى علمية مخيفة ! ولعل غياب الأزهر عن ميادين الثقافة الإسلامية بعض الأسباب فى انتشار هذه الفوضى ..

ثم هناك جراءة على شتم رجالاتنا الكبار ، حتى كادت أذكى مدرسة فى العصر الحديث تختفى تحت وطأة الإنكار والجحود ، أعنى مدرسة «المنار» التى صالحت بين السلف والخلف ، والعقل والنقل ، والاجتهاد والتقليد ، ورسمت أهدافًا واضحة للنهوض بالعقل الإسلامى ، والطبّ لأمة عليلة !!.

وإنى ـ رهبة من مستقبل مقلق ـ أمد يدى لكل من يخالفوننى فى الرأى ، حتى نتعاون على حماية الإسلام من الأخطار الأدبية والمادية التى تتهدده ..

ليست القصة انتصار مذهب على مذهب من مذاهب الإسلاميين ! إنما القصة حماية الإسلام من عداوات لم يخمد الزمان نارها ، عداوات أهل الكتاب من جانب ، والملاحدة والوثنيين من جانب آخر ..

إن هؤلاء وأولئك امتلكوا من وسائل الإعلام ومن حظوظ المعرفة المادية ما جرأهم علينا ! وأعانتهم على ذلك أخطاؤنا ، وما أكثرها ، وتهاوننا وما أسوأه .. !.

فى علم الكلام

كان فكرى سارحًا فى شئون مهمة ، وكنت أدعو ربى هامس الصوت عالى الرجاء ، وكنت على يقين من أن الله يسمعنى ! بل كنت أشعر أنه لو كان هناك على بعد مليار سنة ضوئية شخص آخر يصنع صنيعى فإن الله سامعه معى !.

إن امتداد الزمان والمكان لا يعنى شيئًا بالنسبة له تبارك اسمه ، فما يغيب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء .. « إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ »[1] .

وفجأة تحرك داخل نفسى سؤال متطفّل : أهو قريب بذاته أم بصفاته ؟

إن هذا السؤال المتطاول هو أثر دراسات وقراءات كثيرة تعرضت لها فى حياتى

---

(١) سورة هود : ٦١

وتعرض لها أمثالى ! وهو سؤال قد يكون وليد شَرَهٍ عقلىّ جامح ، وقد يكون حديث نفسٍ طُلَعَةٍ إلى المزيد من المعرفة !.

على أية حال لم أرحب بالسؤال ، وتذكرت مثلاً ضربته عن قدرات البشر العقلية فى مقال قديم : قلت : إن ذبابة تطنّ قريبًا منى وأنا أكتب ! ترى أتعرف هذه الذبابة شيئًا عن الكتاب الذى أؤلفه ؟ بداهة لا .. ما لها وله ؟ كذلك علمى وعلم أمثالى بكنه بديع السماوات والأرض !!.

حسبى أن أعرف أن الله واسع عليم ، إن أجهزتى العصبية والعقلية لا طاقة لها على ما وراء ذلك !!.

إننى لا أعرف كيف يتحول الخبز الذى أطعمه إلى خلية حية تحسّ داخلَ بدنى ، قد تكون جزءًا من السمع والبصر !.

وقررت أن أهمل السؤال المطروح ! إننى وآبائى من سلف وخلف مجمعون على إعظام الله ، وعلى استحقاقه كل كمال « ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ »(١) وما ثارت شبهة فى نفس أحد حول هذه الحقيقة ، فما الذى حدث ؟

الذى حدث أن البعض نظر إلى آيات الصفات ، فأجاب عن السؤال الذى عرض لى بإحدى إجابتين : فإذا قال الله سبحانه : « ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ »(٢) قال : هذا تعبير مجازى عن انفراد الله بالسلطان المطلق فى ملكوته ، فهو الغالب على أمره ، والقاهر فوق عباده ، وليس التربّع على العرش كما يسبق إلى الأذهان عادة ..

ويقول آخر : كلا ، الآية على ظاهرها الحقيقى ، وهو الجلوس ، ولكنه ليس على ما يفهم الناس ، إنه استواء اختص به الخالق الذى ليس كمثله شىء ...

وكان يمكن أن يقف الخلاف عند مراحله القريبة ، وينصرف الفريقان كلاهما

---

(١) سورة طه : ٨.

(٢) سورة طه : ٥.

إلى ساحة البناء الأخلاقى والاجتماعى والسياسى .. فإن سلفنا الأول من صحابة وتابعين أعرض عن هذه المقولات ، ولم يفكر فيها ، وخلص للتعليم والدعوة فى نطاق الآيات المحكمات ..

لكن أمورًا ـ لا نفصِّلها هنا ـ جعلت كلا الفريقين يمضى على وجهه إلى نهاية الطريق .

فإذا القائلون بالمجاز ينتهون إلى ما يشبه التجريد والتعطيل ، وإذا القائلون بالحقيقة يكادون يقعون فيما فرّوا منه ، من تشبيه .. ! !.

وأمامى كتاب جيد الطبع ردىء المعانى عنوانه : « عقيدة أهل الإيمان فى خلْق آدم على صورة الرحمن » .

لقد تساءلت : فما معنى قوله تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »[1] إذا كان آدم على صورة ربه ! !.

كلا الفريقين ابتعد عن سلف الأمة ؛ منطقًا ومسلكًا ، ولو أن أمتنا شغلت نفسها بهذا اللون من المعرفة أول تاريخها لبقى الإسلام محصورًا داخل جزيرة العرب ...

ولو سمحنا لهذا الفكر أن ينتعش وتتسع مباحثه فسيقضى على الإسلام فى أنحاء العالم ، ويتعرض لهزائم ماحقة ..

لقد لاحظت أن غلبة الحسّ على بعض الناس تجعله يتخيل أن الله يغادر عرشه هابطًا إلى السماء الدنيا كى يرحم المسترحمين ، ثم يعود مرة ثانية إلى استوائه ، وهذه سذاجة لا يعرفها سلف ولا خلف ..

وإنما دفع إليها ما يحشده البعض من آثار موهمة ؛ لا صلة لها بالعقائد ـ ولو صحّت ـ لأن العقائد مبناها على النصوص القطعية المتواترة ...

وقد أنعمت النظر فى الخلاف القديم بين فكر السلف والخلف ، فوجدته أدنى إلى الخلاف اللفظى !.

---

(١) سورة الشورى : ١١ .

إذ الإجماع منعقد على توحيد الله وتحميده وتمجيده، ونفي أي شائبة من نقص عن ذاته الأقدس .

وهناك ملحظ ذكرته فى بعض كتبى ؛ أن اللغات من وضع البشر ، اخترعوها للدلالة على ما يألفون من أشياء وأشخاص ومعان مأنوسة لديهم .

فإذا نقلنا ألفاظ اللغة للدلالة على ما وراء المادة ؛ وقع تفاوت يجعل الألفاظ أقرب إلى الرمز والمجاز ، وذاك سرّ القول بأنه لا يوجد فى الجنة من أحوال الدنيا إلا الأسماء ، لأن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر..

فإذا تحدث الناس بألسنتهم عن الله ، أو حُدِّثوا عنه ، فنى نطاق ما أوتوا من قدرات مادية ومعنوية ، والله أكبر ، وهو أجل وأعلى !.

إن عامة المسلمين وخاصتهم متفقون على أن ربهم «لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ»[1] ومتفقون على أن الملائكة والجن والبشر ، والنبات والجماد وكل موجود مخلوق له ؛ نال كينونته لأن الله قال له كن !.

ويتلاشى لفوره عندما يأفل شعاع الإيجاد والإمداد !! ما يمسكه أحد !.

كنت فى المرحلة الثانوية من تعليمى أسمع شيخى يقول : نفى المعتزلة الرؤية ؛ لأنها تدل على الجهة ، والجهة تدل على التحيز ، والتحيز يدل على الجسمية ؛ والجسمية تدل على الحدوث ، والله منزه عن ذلك كله ..

قال شيخى : وهذا كلام لا يلزمنا ، فإن الرؤية التى أثبتها القرآن للمؤمنين شىء آخر لا يستتبع كل هذه المحاذير .. إن عالم ما وراء المادة ، أو عالم الغيب له سنن أخرى غير ما نألف فوق هذا التراب .. فالقياس باطل !!.

أى أن الخلاف لا معنى له ، فما يثبته هذا غير ما ينفيه ذاك ، وقد جاء الأشاعرة يحاولون فضّ هذا الاشتباك ، وكان لهم فكر يصيب ويخطئ ، وليس ما وقعوا فيه من أخطاء أثقل مما وقع فيه غلاة الحنابلة من أوهام رفضها أولو النهى ..

---

(١) سورة الشورى : ١١ .

وتوجد اليوم عصابة من المتعالمين تريد أن تسعِّر النار ، وأن تصبّ الزيت فى الفرن الذى خمد لتعيد اشتعاله ..

وتقع هذه المحاولات المجنونة فى سنوات عجاف ، يأكل فيها المسلم رغيفه من علم الغرب وعمله ، والمضحك المبكى أن هؤلاء المتعالمين يصنعون المعارك على قضايا الغيوب ، وهم يتسوّلون فتات المعارف الأرضية ممن غلبوهم على أرضهم ، وانفردوا بزمام الحضارة وحدهم ..

إنهم يقاتلون لإثبات أن الله خلق آدم على صورته ، فإذا غلغلت البصر فى شئونهم وجدت أن انتسابهم لآدم هو من ناحية الجسد !!.

أما من ناحية أن الله علّم آدم الأسماء كلها ؛ فالقوم يسمعون عن غزو الفضاء وتسخير الذرة ، فلا يعرفون قبيلاً من دبير ، وإنما ينادَوْن من مكان بعيد !!.

إن الصحوة الإسلامية منتهية إلى الفشل يقينًا إذا بقى لهؤلاء الناس صوت يُسْمَع !!.